العرب
الأربعاء 2021/06/16
السنة 44 العدد 12091

من لبنان الأمس إلى لبنان اليوم

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

إن المعروف والثابت، واقعيا وتاريخيا، أن النظام السوري، طيلة عهد الأب حافظ الأسد واستمرارا حتىٰ عهد الولد الوريث، قد اختار أن يحكم سوريا بقبضة مخابراتية حديدية محكمة تتّسم بالعنف والترهيب والتجويع والتضييق علىٰ الحريات، واحتكار التجارة والاستيراد، والسماح لبعض أجنحته وبعض مسؤوليه بالتهريب والرشوة والفساد.

الأمر الذي جعل المواطن السوري، إن لم يكن من الموظفين الثابتين أو المتعاونين مع المخابرات، أو مع تجار العملة، أو من خدَم المهرّبين والمختلسين الكبار، يعاني من أزمات واختناقات معيشية وصحية متعددة متلاحقة لا تنتهي، أبرزها شحّ الأدوية والمواد التموينية الأساسية.

وكان من بعض نتائج هذه الصيغة من الحكم البوليسي المتشدّد أن المواطن الذاهب لشراء دوائه من صيدلية سورية يفاجئه الصيدلي بسؤال محرج يوشوشه في أذنه، خوفا من آذان الحيطان: هل تريد دواءً وطنيا أم لبنانيا؟

وفي أغلب الأحيان كان المواطن الراغب في الحصول علىٰ دواء أكثر جودة، والقادر علىٰ تحمّل أسعاره الباهظة يقبل بالمغامرة ويوافق علىٰ الدواء اللبناني المهرّب. وكان هناك وسطاء وسماسرة مسموحٌ لهم بالتهريب يسافرون يوميا إلىٰ لبنان لشراء الأدوية والأغذية ولوازم العيش الأخرى المطلوبة ويعودون بها لتوزيعها علىٰ الصيدليات والدكاكين التي طلبتها ودفعت ثمنها مع العمولة مقدما.

ويتذكر اللبنانيون أنواع المُهرَّبات التي كان جنود قوات الردع السورية يحملونها معهم بسياراتهم العسكرية وهم عائدون من لبنان، والتي كان أغلبها أدوات كهربائية وأغذية معلّبة، وأدوية، ومشروبات ممنوعة وأجبان فرنسية ولبنانية، وربطات خبز، وغالونات بنزين محسّن.

ومعروف عن اللبنانيين، عموما، أنهم أسبق العرب وأكثرهم ميلا إلىٰ الحداثة والديمقراطية والعلمانية. ويُسجل لهم أنهم جعلوا بلدهم الصغير مضافة كريمة لكل هارب من وطنه الخربان، ولكل عاشق للحرية والانعتاق، حتىٰ برز منه كثيرون من أصحاب الأقلام التنويرية المتحرّرة وعمالقة المدارس والنظريات الفكرية الثورية التقدمية حملت منجزاتُهم الخالدة رائحةَ لبنان، بحره وجباله، ومقاهيه، ومنتدياته الثقافية الشهيرة، ومهرجاناته الرحبانية، ومطابعه الأحدث ما في العالم، ودُور النشر العريقة الرائدة التي لم يكن ينافسها في الجودة والأناقة والجمال ومهارة التوزيع أيُّ عربي آخر، قط.

ولبيان حجم النكبة اللبنانية التي تسبب فيها حزب الله لهذا البلد الجميل نُذكركم قراءنا الأعزاء، بأن سعر الليرة اللبنانية في العام 1975 كان ليرتين وثلاثين قرشا فقط للدولار الواحد، وفي 1984 بلغ ست ليرات ونصف الليرة، واليوم تجاوز سقف الـ15000 ليرة للدولار الواحد، وعندكم الحساب.

هذا ما كانَه لبنان الأمس، وهذا ما أصبحَه اليوم. فالأطباء والمرضىٰ اللبنانيون وذووهم الذين تمنّوا الهجرة ولم يُرزقوا بها يتظاهرون يوميا غاضبين يشكون من عدم توفر الأدوية والأجهزة الطبية في المستشفيات والمستوصفات والصيدليات، ويطالبون بحليب الأطفال، ويلعنون المتلاعبين بأسعار المتوفر القليل منها التي تعدَّت حدود المعقول والمحمول.

ففي جهد دؤوب ومنظم وممنهج تمكنت إيران، في بضع سنوات، من تحويل لبنان الأمس العزيز الكريم السعيد إلىٰ لبنان اليوم الحالم بحبة دواء وصحن تبولة وموال أوف ومولّيا.

ومثلما استخدَم النظام الإيراني سياسة تفكيك الدولة وزراعة السلاح المتفوق علىٰ الجيش فملَك العراق ووضعه في جيبه الصغير، فقد اتبع نفس الأسلوب التفكيكي مع الدولة اللبنانية، ونجح في تمزيق وحدة شعبها وإفقاره وإذلاله وتهجير الكثيرين من أبنائه، ليضع حزب الله في موقع الحاكم الفعلي الأعلىٰ وصاحب القرار الأخير.

وتاريخيا أسست إيران حزب الله في أوائل الثمانينات بذريعة تحرير جنوب لبنان، وأرسلت 1500 من عناصر الحرس الثوري عبر سوريا التي كانت تحتل لبنان، يومها، لتدريب قواته علىٰ الحروب، وأمّدته بالمال والسلاح حتىٰ أصبح دولة داخل الدولة، وصارت ميليشياته أقوى من جيش الدولة، ثم هيمن علىٰ مطار بيروت الدولي والميناء والحدود، وفرض وصايته علىٰ أجهزة الأمن والتجارة والخارجية والاقتصاد.

وفي يوليو 2012 قال حسن نصرالله، لأول مرة، علىٰ شاشات التلفزيون إن "موازنة حزب الله ومعاشاته ومصاريفه وأكله وشربه من الجمهورية الإسلامية في إيران منذ العام 1982"، و"لا يستطيع أي قانون أن يمنعنا من ذلك".

ولإجبار المواطن اللبناني علىٰ قبول الأمر الواقع الجديد عمد الحزب إلىٰ سياسة الاغتيال والخطف والاعتقال الكيفي والإخفاء القسري والتهديد بالقتل لبلوغ أهدافه السياسية المرسومة له بدقة في طهران.

وكانت جريمة اغتيال رئيس الوزراء الشهيد رفيق الحريري فاتحة مسلسل الاغتيالات الطويل الذي راح ضحيته العشرات من السياسيين والمثقفين والصحافيين والعسكريين اللبنانيين.

ناهيك عن عمليات التفجير التي نفذها الحزب ضد الهيئات والسفارات العربية والأجنبية، وحملات التضييق والطرد التي شملت المقيمين العرب والأجانب، ومنهم مستثمرون ورجال أعمال كانوا يتخذون من لبنان مركزا لصادراتهم واستثماراتهم، وصولا إلىٰ تفجير ميناء بيروت الذي راح ضحيته 150 بريئا والمئات من المصابين والمتضرّرين. ثم ختم حزب الله منجزاته الجهادية بشحنة الرمان الملغوم المحشو بالمخدرات.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التاريخ الطويل من تعطيل المؤسسات ونشر الفساد والرشوة وتهريب السلاح وزراعة المخدرات، وتصنيع المفخخات وتهريبها إلىٰ الخارج، وتزوير العملة وغسيل الأموال أن فُرضت علىٰ الشعب اللبناني هذه العزلة العربية والدولية السياسية والسياحية والاقتصادية الخانقة.

وفي هذه الأجواء المظلمة الخانقة يخرج علينا المتحدث باسم البنتاغون جون كيربي ليعلن أن "الولايات المتحدة تراقب عن قرب تصرفات إيران السيّئة في المنطقة، وفي الأبعد من المنطقة، بما فيها الصواريخ والإرهاب وإعاقة الملاحة الدولية".

ويتبعه قائد القيادة المركزية الأميركية كينيث ماكنزي، ليؤكد أن "التواجد في المنطقة هدفه منع إيران من التمادي في أنشطتها الخبيثة".

وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وكندا وأستراليا، جميعها، تدين حزب الله وتصف النظام الإيراني بأنه أكبر داعم للإرهاب وتهدّد بنفاد صبرها.

إذن فلنا أن نسأل هؤلاء أجمعين: متىٰ ستفعلون ما لا تفعلون؟

الردّ فلسطينياً على الجمود الإسرائيلي

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

يمكن الاستغراق طويلا في الكلام عن الحكومة الإسرائيلية الجديدة برئاسة نفتالي بينيت وعن هشاشة تركيبتها. في الواقع، يمكن الدوران طويلا، من دون فائدة تذكر، في فلك هذه الحكومة التي لا وجود لأي قاسم مشترك، من أيّ نوع، بين مكوناتها.

من هذا المنطلق، تبدو الحكومة الإسرائيلية الجديدة التي حازت علىٰ الثقة بستين صوتا، فيما اعترض عليها 59، مع امتناع نائب وحيد عن التصويت، في غاية الهشاشة. سيكون عليها البحث في كلّ وقت عن سبب يدعو إلىٰ استمرارها وتفادي سقوطها. هذا ما جعل بنيامين نتنياهو يتوقع عودة قريبة إلىٰ موقع رئيس الوزراء، اللهم إلّا إذا أدانه القضاء الإسرائيلي في قضايا الفساد التي لاحقته وما زالت تلاحقه.

تعكس هذه الحكومة، التي لا يجمع بين أعضائها الـ27 (بينهم تسع نساء) وأحزابها الثمانية سوى الرغبة في التخلّص من "بيبي"، وجود أزمة عميقة في الداخل الإسرائيلي. يظلّ أفضل تعبير عن هذه الأزمة إجراء انتخابات نيابية أربع مرات في سنتين من دون التوصّل إلىٰ أكثرية واضحة في الكنيست، أكثريّة يوجد تجانس في الحدّ الأدنىٰ بين مكوناتها.

ليست الحكومة التي تشكلت سوى كائن هجين ليس معروفا رأسه من قدميه. ليس معروفا أيضا أين الأعضاء الأخرى من الجسد. نظريّا، ليس ما يجمع بين اليميني بينيت الذي كان من بين أبرز الداعين إلىٰ الاستيطان ويائير لابيد الوسطي الذي يفترض أن يخلفه في موقع رئيس الوزراء في غضون سنتين. يشغل لابيد في الحكومة الجديدة موقع وزير الخارجية. كيف ستكون هناك سياسة خارجيّة إسرائيلية واضحة في غياب تجانس بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية؟ لا جواب عن مثل هذا السؤال في الوقت الحاضر. لم يكن من همّ لدى لابيد وبينيت غير همّ الخلاص من "بيبي" الذي بقي رئيسا للوزراء طوال 12 عاما أبلىٰ خلالها البلاء الحسن في لعبة التلاعب بالآخرين.

سيظلّ الموضوع الأساسي الذي سيطرح نفسه بحدّة الموقف من إيران وسياساتها في المنطقة وبرنامجها النووي. سيطغىٰ هذا الموضوع علىٰ كلّ ما عداه. سيكون أكثر سهولة علىٰ الحكومة الجديدة إيجاد نوع من التفاهم مع الإدارة الأميركية في شأن التعاطي مع "الجمهورية الإسلامية" وبرنامجها النووي وسلوكها الخارجي وصواريخها، خصوصا أن "بيبي" كان اتخذ موقفا واضحا معترضا علىٰ أيّ اتفاق أميركي - إيراني في ما يخص العودة إلىٰ اتفاق العام 2015. هذا الاتفاق الذي ترغب إيران في العودة إليه بشروطها التي في مقدّمها رفع العقوبات عنها. لن تكون الحكومة الإسرائيلية من يقرّر في ما يخص إيران. ستبقىٰ المؤسسة العسكرية - الأمنية صاحبة الكلمة الأخيرة في هذا المجال. لهذه المؤسّسة تاريخ طويل من التنسيق مع الدوائر المختصّة في الولايات المتّحدة...

إضافة إلىٰ ذلك، لن تجد الإدارة الأميركية صعوبات كبيرة في التفاهم مع الحكومة الإسرائيلية الجديدة. يعود ذلك إلىٰ أن بني غانتس سيبقىٰ وزيرا للدفاع. يمتلك غانتس الذي كان رئيسا للأركان القدرة علىٰ الدخول في حوار مع الإدارة في واشنطن. وهذا ما فعله قبل نحو أسبوعين عندما قام بزيارة للعاصمة الأميركية التقىٰ خلالها عددا كبيرا من المسؤولين الأمنيين.

لم يستطع غانتس التوصل إلىٰ تفاهم مع "بيبي" في شأن كيفية التعاطي مع الإدارة الأميركية، خصوصا أنّه يبدو جليّا أن هناك إصرارا لدى الإدارة علىٰ التخلّص من رئيس الوزراء السابق ومنعه من البقاء في موقعه بسبب غياب الأمل في التفاهم معه. هذا حدث في الماضي عندما ضغطت الولايات المتحدة في عهد بوش الأب من أجل التخلّص من إسحاق شامير بعد انعقاد مؤتمر مدريد في أواخر العام 1991.

علىٰ الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية الجديدة ستكون عاجزة عن اتخاذ قرارات جريئة في ما يخص عملية السلام نظرا إلىٰ وجود دعم من قسم من اليمين المتطرّف لها ودعم من "القائمة العربية الموحدة"، التي يتزعّمها منصور عبّاس، أي من الإخوان المسلمين، ثمّة حاجة إلىٰ كسر الجمود الذي يتوقع أن يتحكّم بالسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. إذا كان هناك جمود إسرائيلي، هل من الضروري أن يكون هناك جمود فلسطيني؟

يُفترض في الجمود الإسرائيلي ألّا يمنع الجانب الفلسطيني من اعتماد المرونة وإعادة لملمة صفوفه والاتفاق علىٰ إعادة ترتيب البيت الفلسطيني، خصوصا في الضفة الغربية. من الواضح، في ضوء ما حصل في القاهرة حيث بدا مستحيلا مباشرة حوار فلسطيني - فلسطيني مثمر بين السلطة الوطنية و"حماس"، أنّ ليس أمام "حماس" في الوقت الحاضر سوى التشنّج من جهة والبقاء في أسر الشعارات من جهة أخرى. تعتقد "حماس" أنّها صارت صاحب المبادرة فلسطينيا بعدما كشفت من خلال صواريخها في غزّة حال الترهل التي أصيبت بها السلطة الوطنيّة. لماذا لا تقوم السلطة الوطنيّة بعملية نقد للذات في العمق وتجدّد شبابها عن طريق التخلّص من عقدها التي جعلت "فتح" ثلاث جهات وحرمت الفلسطينيين من أفضل الكفاءات مثل الدكتور سلام فيّاض والذين تعاونوا معه عندما كان رئيسا للوزراء، علىٰ سبيل المثال وليس الحصر.

> الحكومة الإسرائيلية تتشكّل في وقت اكتشف فيه الفلسطينيون أنهم شعب واحد في الداخل والخارج، وتوفرت لهم فرصة لترجمة هذه الوحدة إلى فعل إيجابي عبر الانتخابات التي أصر محمود عباس على تأجيلها

تتشكّل الحكومة الإسرائيلية، بالتي هي أحسن، في وقت اكتشف فيه الفلسطينيون أنّهم شعب واحد في الداخل والخارج. في الضفّة وغزّة وأراضي 1948... وفي الشتات. توفّرت للفلسطينيين فرصة لترجمة هذه الوحدة إلىٰ فعل إيجابي عبر الانتخابات التي أصرّ رئيس السلطة الوطنية محمود عبّاس "أبومازن" علىٰ تأجيلها.

بانتخابات ومن دون انتخابات، من واجب الفلسطينيين التحرّك وذلك بغض النظر عن حال المخاض التي تمرّ فيها "حماس" التي تعاني من تجاذبات كثيرة. هناك "حماس" التركيّة و"حماس" الإيرانية و"حماس" القطرية و"حماس" الفلسطينية التي لا بد أن تنتصر في نهاية المطاف.

شئنا أم أبينا، حصل تفاهم في إسرائيل علىٰ استبعاد بنيامين نتنياهو بتواطؤ أميركي. متىٰ يحصل تفاهم داخلي في الضفّة الغربية علىٰ تجديد شباب القيادة الفلسطينية والاستفادة من ذوي الخبرات في الوقت ذاته يستحقّ الفلسطينيون قيادة أفضل، خصوصا أنّهم شعب حيّ يمتلك عددا كبيرا من أفضل الاختصاصيين في مختلف المجالات.

آن أوان حصول تغيير فلسطيني في العمق كي لا يقال إن الشعب الفلسطيني عجز عن ترجمة وحدته الوطنيّة إلىٰ فعل في المجال السياسي...